افتتاحية العدد

رُفعت الأقلام .. وجفّت الصحف
وقضى نحبه
عَلَم الأمّة وشيخ السنّة

الإمام الألباني

بقلم: محمد إبراهيم شقرة

نعم لقد جفت الصحف، ورُفعت الأقلام، وثبتت الأقدار في مستقرها، بعد أن قطعت الأشواط الزمانية التي قُدرت لها فوق صعيد الحياة، وألّم بها الوهنُ، وأقعدها العجز، وأسلمها إلى النهاية الصائرة إليها الأشياء كلها، ومنها، وعليها، حين غاب عنها صاحبها، وآثر اللحاق بالملأ الأعلى.

وما كان يكون للأقدار أن تتخلف عن مواقعها، وقد أوثقها الله إليه بإرادته الحكيمة مذ كانت إرادته، مذ كان ولم يكن شيء، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الحكيم الخبير، فلا راد لها إلا بأقدار أخرى تقضي إرادته الحكيمة بغير الذي قضت به، فأين المهرب من قدر، وقد سيقت معه

وإليه إرادات المخلوقات كلها بقوتها وضعفها، وألقت عنده راحلة العمر حبلها، توثق به إلى النهاية الحتم التي لا تختلف عليها إرادات البشر جميعها، الا بما يكون منها من طواعيةٍ راضية، وتسليم لابث، رضيت ذلك أم كرهت! ذلكم أنه كائن لا محالة.

وأجاء ا لله قدره إلى الروح القوية، التي ظلت زهاء ستة عقود تحتضن لواء السنة عزيمة لا تعرفُ التردد، وصبر لا يعرف الضجر، وإقدامٍ لا يعرف النكوص، ودأب موصول لا يعرف الوهن، وسهر عُمّيت الطرائق على الإجهاد إليه، ودقّة صبور تقاصر عنها الهمم، وأمانة واعية أذكرت أهل العلم بما يجب عليهم من حقوقها، واستقصاء أحاط علماً بكل ما ندّ من قواعدها وخفي من أصولها، وشغف ظلّ مشبوباً به قلبه حتى سقط القلم من بين أصابعه، واستحضار للنصوص والآثار والسنن والبلاغات بأحكامها، وعزوها إلى مظانّها، والتأليف بينها، والناسخ والمنسوخ منها، والاستنباطات الفقهية الحسنة، إلى غير ذلك من علوم السنة التي وضع لها خدّه وعشقها قلبُه، وأناخ على صدره منه همُّها واستوى عليه سوقها، وأصاب كلّ طالب علم محب للسنة ما قدر عليه من ثمرها. ولم تعرف السنة النبوية في شطر عمرها الثاني مثله في قوة سَبرِه، واستدراكه على السابقين، وتيسرِ وتسهيلٍ للاحقين، واختصار للمتون وتوليف بينها وإعمال دقيق محكم لقواعدها وأحكامها وتتميم للنقص الذي بدا عُواره فيها ورد وضبطٍ وتقويم للخلل الذي وقع عليها، وتبيان للعلل التي حلّت بها، وتصويب للأخطاء التي عكّتها، وثبتت زماناً مديداً لها، وسلّم بها العلماء تسليماً مطلقاً لطول العهد بها، لخفاء عللها على السابقين وكان علم السُّنة قد صار إلى

غياهب النسيان، وانقطع به عقوداً طويلة، حتى صار الاشتغال به ضرباً من المستحيل، بل وصار يكاد أن يعاب من يهمُّ بالاشتغال به إلا ما يكون من طباعة كتبها، والاهتمام بحفظ نصوصها بأسانيدها أو مجرّدة منها، حفظاً يكون الحافظ به نسخة جاد بها حفظ الحافظ على النسخ التي أخرجتها المطبعة من تحت أضراسها لكتاب من كتبها ليظل الكتاب محفوظاً كما هو بأخطائه وأغاليطه التي علقت بصحائفه من أول مرة طبع فيها فقد اكتسب هذا الكتاب قدسيةً، تسمو إلى قدسية المصحف، على أن ليس في آياته خطأ ينفي عنه الصواب ولم يعدُ الحفظ هذا بل لربما شُهِر الحافظ حتى ليقال فيه لقد أدركَ بركةً عزّ على الناس نوالها، وهذا حقٌ لا ريب فيه وبخاصة وإن كان الحفظ أخذاً بإجازة، ولكن أن يبقى عند حدود الحفظ فذلك يقبل حتى من العوام الذين يجيدون حفظ القرآن.

فلما طلع النجم الأكبر وسطع ضوؤه، وتلألأ في سماء الشام سناه قال قائل السُّوءى: أأعجميٌ وعربيٌ، وتناحلت الذّم عليه السنّ بأسوأ من هذه القالة فيه وتلاحت مقاول الحسد تصد بالكلام عنه، ولكأنما حُبست عن الخير كله قولاً وفهماً لأسبابه، وناءت بعجزٍ أصمّها عن سماع شيء مما وهبه الله سبحانه ورضيه له مباركاً فيه، وأسلس له قياده.

وقد عرفت ديار الشام نفراً من أهل العلم كانوا يعنون بالسّنة لكنها عناية لم تخرجهم عن قيد المذهبية التي كانوا قد وجدوا آبائهم عليها فكانت مذهبيتهم تقهرهم على ليّ أعناق النصوص التي يحفظونها ليّاً يدينها من المذاهب التي صارت لها قدسية تعلو قدسية السنن والآثار ليكون المذهب الذي نشأ عليه أحدهم هو الأول قبل الآخر، والآخر بعد الأول لا يطاول

بحق، إلا أن يتحول المتمذهب عن مذهبه الذي لم تستطع قدسيته أن تحول دون تحوله عنه، وذلكم حين يصعب جداً عليه أن يسيغ بعض المسائل التي كان التسليم بها قبلُ هو النجاة والمرقاة، كالشيخ القاسمي رحمه الله، وغالبية أهل بلاد الشام على المذهب الشافعي.

فلما أن طلع نجم ذلك (الأعجمي) زعموا، وزعموا مطيّة الكذب ومرتع الهوى وسوق الدّقل! ومباءة العجز الباهظ فيا حسرة على المسلمين، ما يأتيهم من عالم أفاء الله عليه بعلم الكتاب والسنة إلا كانوا عنه معرضين، وله مُعادين، وعن قوس واحدة له رامين، ولكأني به رحمه الله على حياء سابغ حين يعرض لذكر قوله عليه السلام: (إن الله لا ينزع العلم منكم بعد ما أعطاكموه انتزاعاً ولكن يقبض العلماء بعلمهم ويبقى جهّال، فيُسألون فيُفتون، فيَضلُّون ويُضِلُّون) وهو ممن نقطع من تلكم الطائفة التي بموتها يموت العلم وتنقطع مادته الصالحة وذلك من خشية أن يقول الأفّاكون الخرّاصون المبطلون أنه إنما يعني نفسه.

وحتى لو أنه أراد أن يريد نفسه لما جاوز عتبة الحق والصدق والحقيقة، ويكون تحدياً منه بنعمة الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولقد عهدنا منه حين كان يثني أحد عليه بعلمه يقول: ما أنا إلا طويلب علم صغير، ثم كلمة الصدّيق على لسانه: «اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون»،وكثيراً ما كانت دموعه تخالط كلماته فتقطع حروفها ولا يكاد يبين عن كلماته إلا من بعد انقطاع دموعه ولقد لقي رحمه الله من المشايخ المذهبيين ما لقي العلماء الربانيون

من قبله من سوء الظن بكل مؤثّمة من القول والرّمي بسابغات التُّهم، والزمان يتداعى حاضره بماضيه وأوله بآخره وشاهده بغائبه، حتى يكون كأنما هو كله بكل ما حواه مخلوقاً ليكون شاهداً على نفسه أنه زمان واحد يذكر بخلق السماوات والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وأن كثيراً مما خلق ا لله في أجزاء هذا الزمان العتيد الطويل الممتد فوق رقعة الأرض والسماء يتساوون في الأذواق والعقول، وإن تفاوتوا في صورهم وأشكالهم وأن أسوأ الأذواق وأردأ العقول عقول الذين تلطخوا بمنابذة السنة المطهرة وأذواق الذين باتوا على جمر العداوة لأحكامها وآدابها، فناءوا جميعاً بأوزار الناس الظَّانِّين فيهم الظَّن الحسن وما هم إلا من خبال الأوهام المُوَشَّاة بضلال الرَّيب وريَب الضلال، لا يُليذُهم مكرهم السيء إلا إلى مكر مثله أو أسوأ.

وكان للشيخ حظ من مثل هذا، نودي به في الناس أنه «الإمام» بلا منازع ناخت ببابه رواحل علم السنة فندب ا لله لها من أراد به خيراً ليأخذ من أوقارها ما يقدر على أخذه فما نقص منها شيء إلا وصار إليها أضعاف ما نقص -بدأب الشيخ وصبره وإحاطته- ومن دخل مكتبته التي أنشأها بقلمه لا يكاد يصدق أن تلك المخطوطات المنضودة فوق رفوفها، وسطَّرها قلمه واجتناها عقله ورصفها بجَلَدِه هي صنعته وَحدَه وبخاصةٍ منها «سلسلته الذهبية» الصحيحة والضعيفة التي تنعم الأمة إلا بأقل من نصفها قبل موته ولو أني حلفت يميناً فيها أنه ما من حرف ولا كلمة فيما صنف إلى وهو من خطه هو، لذا كانت البركة الخالدة فيما مَنَّ ا لله عليه من علم أفاض به

معرفة باقية في عقبه إلا ما شاء ا لله، ولو أنه سلك طريق التأليف التي أمعن في سلوكها الحاطبون في ظلمات الخَتلِ، والنهب والسطو، وسخَّر طوائف من الجهلاء بأجر حسن يبغون التكسب الرخيص من وراء الأردية الفضفاضة أو الحازقة الحاقبة التي يودون أن يستروا بها عوراتهم، وقبيح فعلاتهم وما هم بفاعلين، وما أقبحها من عورات سمّنها الجشع الطُّلَعة، وأهزلها من بعد تجشُّمُها محولات الإبقاء على ظنون الناس المخدوعين فيها فما أصابت إلا حزناً على ما فاتها، وإلا هلعاً من خوف على ما حسبته أنه خالد محبوس عليها، فهي بينهما على وجل غير مجذوذ، وأنى يكون لها أن تضع خفافها إلا حيث يقضي به عليها هواها.

ولقد طوّفت السنة بآفاق الأرض، تبحث عن مستقر لها فما وجدت في هذا القرن الجائلة فيه الفتن آمن لها منه ولا أعطف لها من قلبه، ولا أحفظ لها من صدره فوهبت له نفسها في ثقة راضية، ورضيته أن يكون لواءها العالي الرفيع تحمله في قوة وجلادة ينتاب به ليل نهار نوادي العلم وتغشى به جموع طلابه وترتاد به ثَنيّات المعارف وتطلع بشارفة شوارفها فترد إليه شواردها وشواهدها كيلا يكون لغيره ما أرادته له من شرف شارف به من شرّفه ا لله من قبل أن يكون من أشرف شرفائها كالبخاري ومسلم وغيرهما من نبلاء الحفظة والمحدثين فزهت به أرض الشام غوطتها وبلقائها حيث منشؤه، ومُهاجَره، ومُقامه الذي كرّمه، وثواؤه، وتغنت بذكره أرض الكنانة، وفتحت له ذراعيها أرض الجزيرة والفراتين وتساعت إلى بابه في جهار (وخفاء) دور النشر تطلب ود قلم بصبيب عطائه.

وأحمد الله ربي سبحانه أن أولاني صحبة كريمة فائقة له دامت نحـواً مـن خمس وثلاثين سنة، ما كانت لتدوم على صفاء وبرور لولا ما أوقرت له فيها من صادق المـودة والرعايـة وشـجاعة النصـرة والحمايـة مـا لم يكـن لأحـد سواي، لم أرَ لي عليه بهذا كله حقـاً يؤمّـل إلا مـا أرتجيـه مـن حسـن ثـواب الآخرة.

وطلاب العلم في زماننا يصدُق فيهم قول نبينا ﷺ: «والناس كإبل مائـة لا تجد فيها راحلة» وقد أوشك الناس أن يدركوا بطلاب العلم وما ينشرون في الناس من كفاف الحروف والمعاني علامة من علامات الساعة وهـي: «فشـوّ القلم» وليس أدلّ على وجـود هـذه العلامـة أن طـلاب العلـم أنفسـهم في زماننا -على أنهم طلاب علم- ليسوا عالمين بأنهم هـم أنفسـهم، فهـي هـم وهم هي، وبأنها علامة قائمة فيهم وأنهم هم نتف متفرقة منها وأن الإكثـار من الكتابة والتأليف وإن ظُن أنه سيكون به ومنـه ومعـه علـم يعـني «فشـوا القلم» أوسع فيهم جهلاً وغروراً.

ملاحظة هامـة: أرجـو طـلاب العلـم واحـداً واحـداً في أقطـار الأرض وجهاتها أن لا يشير أحدهم لنفسه بإصبع الاتهام (بأنه المعني بذلـك) إلا إن علم من نفسه علم اليقين (بأنه كذلك) والواحد فرد شائع كما يقال، وذلك خشيةً من أن يكون الظن منهم لا يوافـق (مَطرَحـه أو مُطّرَحـه) فـيرتد إليـه سهم ظّنه مُصِمّاً والعهد بنا بمثله قريب.

وأحسبني صادقاً والناس معي بصدقهـم أن كـانوا مصدّقـيّ فيمـا أقـول: مصدقاً لما بين يديّ من شهادة ستين سنة، صدّقت بهيمنـة دعواهـا صدقهـا،

وبتصديق الشيخ لها بما شهدت كتبه بصدق ما حوته من علم صادق مصدق، ما نطق به لسان الأيام عدلاً وصدقاً لا لَبس فيه ولا ريب بأخذ العهد الصادق الموروث عن النبي الصادق المصدق فلكأنما كان وعد صدق من الشيخ أو مع الشيخ في حياته أو من بعد موته أن يظل منهجه في عقبه ثلجاً، يُحدّث الناس أنه سيبقى صادقاً (بكلّه) و(بأجزائه كلها) لما أصدق بظاهر رسمه وشكله وبما أخفى من فحواه ووحيه، وبما أرتع القلوب والعقول في شجره ونجمه وبما سقاها من نمير ينعه ورضاب ثمره حتى أضحى الدليل من آي الكتاب، ونصوص السنة، وآثار علماء سلف الأمة مطلب العالم، وبغية المتعلم، ونشدان المتأدب، والتمست طرائق البحث الاستقرائي، والنظر الرَّويّ، والسبر الدُّريّ، ولم يعد لطالب العلم مكان إلا بذلك، وصار الدليل من هذه كلها أو من بعضها يطلب من قبل أن تساق المسألة من مسائل الفقه، كبيرة كانت أم صغيرة، فإما إثباتٌ بدليل، وإما نفي بدليل لتحيا التي تحيا منها عن بيّنة، ولتزول التي تزول منها عن بيّنة فيبقى علم الكتاب والسنة على جلاء الحجة، فصارت المسائل تباهي بأدلتها أخواتها من المسائل الكاثرة على جُنح الظلام وفوق أريج الصبا وعلى متن عافية النهار في تسابق بين المهرة البهرة الخُلّص البررة، الذين أصابوا من كرائم العلم، وطرائف الحكمة، وأنشدوا أنفسهم ا لله سبحانه أن يكونوا على سواء القصد في إيراد المسائل العلمية بأجلى وأحلى وأغلى صفة الإيراد.

وما كان العلم أن يكون إلا في غرر المعجزين القادرين الواهبين أوقاتهم للعلم الذي طويت صفحته، فنشرها الشيخ نشراً أوهى به قرون القرون،

وشهدت له بفضل السبق به قادمات القرون، ومن أمّل أن يقوم مقامه بعزائم السنة والأثر، فليفرح بجهل ملبس غاص في وحله، وليهنأ بأمنية قصيرة الأجل نَعِمَ بها يوماً ذهبت مع الشيخ إلى قبره، ومن عاد على نفسه بها من ظنٍّ أنه قادر عليها، فقد أفضى إلى سراب بقيعة، أو إلى سيل عَرِمٍ جارف.

وطال الشوط أم قصر فإن المرقد الأخير ينتظر الوافد إليه، على شوق إليه، مراً كان أم حلواً لهذا الوافد، فالعمل الذي يستقبله عند مرقده هو ما كان منه أثناء الشوط لا يزاد عليه ولا ينقص منه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وسقط القلم من بين أصابع الشيخ، وذاب الصوت القوي الندي اللطيف، الذي ملأ طباق الأرض علماً، وسكت اللسان الذي جالت الحكمة والآي من فوقه، وأطبقت الشفتان اللتان طالما تحركتا بالفقه والتأويل، وحيل بين الثرى وبين الثريا برحيله، وتطامنت الرؤوس من حزن أن لا يكون لها لقاء في حِلَق الدرس والتلقي بين يديه، وصفّقت قلوب طار أصحابها من فرح أحاط بها بغيابه، وتنفست الصُعداءَ صدور تربّع الحقد والحسد من فوقها، واستبشرت نفوس بُشمت بالسوء والبغضاء أن أعجزها إدراك فضيلة القبول التي سعت إليه من شتى أقطار الأرض، فكان بها بحق مجدد القرن، ومَفزَع العلم.

لكن .. مهلاً، مهلاً، مهلاً، يا هؤلاء لقد وطئت أقدامكم أرضاً وعرة وأرهقتم نفوسكم في طرائق صعبة، وركبتم لجة بحرٍ هائجٍ موجه، ولستم

وا لله بمنجي أمانيكم بمثل الذي أنتم عليه، وإن كان لكم رجاء فهو معلق بذنب ضبٍّ، فاسعوا به إلى ذي عوجٍ في رأيه، أو إلى مبطون أفلت زمام أسره، فقد وقى ا لله سبحانه السنة التي احتضن لواءها علمها الأشم ستة عقود كاملة، وقام وسيبقى حصناً منيعاً لها نفرٌ من تلامذته من بعده، نذروا أنفسهم للسنة وعلومها والدعوة الغرّاء وكرامتها، ما داموا أحياء في غربة خضراء مريعة خصبة، ظَلُّها هطل، ونورها فوح، وعطاؤها بركة وفرٌ، فخير لكم ألا تكونوا على وجلٍ منهم، ولا على مكرٍ بهم، فأمةٌ محمد ﷺ إمامها -وقد بشرها وأنذرها- ما يكون لها أن تختلف قلوبها، ولا أن تصيب من فرقة عقولها، ولا أن تجثوا من ذل النزاع على ركبها، ليكون التمكن لعدوها من رقابها، يستبيح بيضتها ويكسر شوكتها، ويرضخ عزتها.

ولن يجعل ا لله للأمة سلطاناً على عدوها بالعدل في الحكم، والسؤدة بالعلم، والاستحواذ بالحق، إلا أن تأوي إلى كَنَف الكتاب الكريم، والهدي النبوي الحكيم، وأثر السلف القويم.

وحقاً إنه لمصاب سابغ جلل، وخطب جسيم لا يحتمل، وبلاء وبيل مروع إثر بلاء من قبله حلّ، وليس من شيء يهيض جناح الأمة مثل موت العلماء، فرحم ا لله الشيخان الأنوران، فقد وا لله ما مُنيت الأمة منذ عقود طويلة بمثل ما مُنيت به من موتهما: الشيخ عبدالعزيز بن عبدا لله بن باز الزاهد الداعية، دثار الحكمة، ورواء التأويل، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني، محدث العصر، ورافع لواء السنة، وشمس الأمة، رحمهما ا لله، وأجزل لهما الأجر، ووفّانا نعمة الشكر على ما أبقيا فينا من بعدهما، ونعمة الصبر على مصابنا فيهما.

ومع عُظمِ البلاء يكون عُظمُ الأجر، وعُظمُ الأجـر لا يكـون إلا وصوبـه الصبر ومن سخط كان له السخط، ومن رضي كان له الرضـى، ولا يخفـف من شدة وقع البلاء مثل ثلاث: عموم البلاء، والصبر على شـدته، والأجـر الذي يوفاه الصابرون، ورابعه هي: وِكاءُ الثلاث: ذكر مـوت النـبي ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب».

اللهم فآجرنا في مصيبتنا وأخلف لنا خيراً منها.

واجمعنا بهما تحت لواء الحمد، لواء محمد ﷺ.

وكتبه

الشيخ محمد إبراهيم شقرة